١٥ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

الفصل الخامس

الحياة المنزلية

الآن — وحسبنا ما نظرنا في حالة مسلمي مصر الأخلاقية والاجتماعية — تستطيع أن نلقي نظرة على حياتهم المنزلية وعاداتهم المألوفة . ولنبدأ بالطبقتين العليا والوسطى

يطلق على رب العائلة أو من يبلغ سن الرجولة إذا لم يكن خادماً أو خملاً لقب « شيخ » احتراماً وتشريفاً . والمعنى اللغوي لكلمة شيخ هو عجوز ؛ ولكن كثيراً ما تستعمل مرادفة لفظة « سيد » ، وإن أطلقت بصفة أخص على رجال الدين وأولياء الله . ويقال للشريف (من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم) « السيد » أيا كان منصبه . وكثير من الأشراف يشتغلون خدماً وزبالين وسائلين ومع ذلك يلقبون بالسيد ، ويميزون بالعمامة الخضراء[1] ؛ إلا أن غالبهم ، يفضلون على هذه الامتيازات لقب الشيخ والعمامة البيضاء . ويسمى من قام بفريضة الحج « الحاج »[2]. على أن هناك جملة حجاج ، مثل الأشراف ، يفضلون لقب الشيخ . ويطلق على المقائل بوجه عام لقب « الست »

وقبل أن أصف عادات رب العائلة يجب أن أشير إلى الطبقات المختلفة التي قد تتكون منها العائلة : (الحريم) ، أي نساء المنزل ، ولهن غرف خاصة بهن يطلق عليها ، كما يطلق على النساء ، الحريم ولا يسمح للرجال بدخولها ما عدا رب العائلة وبعض الأقارب الأدنين والأطفال . ويتألف الحريم من زوجة أو أكثر ، ثم من الجواري . والبعض من الجواري

(١) كثيراً ما يتزوج رجال هذه الطبقة ونساؤها من غير الأشراف . ولما كان لقب الشريف يورث من أي الأبوين فقد كثر عدد من يتمتع بهذا التميز كثرة عظيمة

(٢) هذه الكلمة تنطق هكذا في القاهرة وأغلب أنحاء مصر . ولكن أكثر البلاد العربية تنطقها « حاج » (بتعطيش الجيم) ويستعمل الأتراك والفرس بدلا منها كلمة « حاجي »

وأسمى غرضاً ، فهي ترمي إلى تكوين الجيل على أساس قوي من الوطنية المستنيرة ، والإدراك السليم لحقائق المجتمع ، والحرص على حقوقه الاجتماعية ، والنهوض بأعبائه الثقال في مكافحة ما يندس في كيانه من الآفات ، ومسايرة القافلة الإنسانية في تنقلها السريع

وإلا فما قيمة تلك النتائج التي أحرزها الشعب في جهاده الطويل ، إذا لم يكن هذا الشعب قد تهيأ للانتفاع بها على الصورة التي تبدو فيها آثار التطور واضحة ملموسة ؟

وما قيمة تلك المبادئ التي كفل بها الدستور الحقوق والحريات ، إذا كان الشعب عاجزاً عن تمثل هذه المبادئ وتطبيقها في حياته الفردية والاجتماعية ؟

إننا بهذا الاتجاه السديد في فهم رسالة التعليم الإلزامي ، نستطيع أن نتبين السر فيما نشكوه من العيوب في نواحي السياسة العامة . ونستطيع أن نعلل الفشل الذي يلازم أكثر مشروعات الإصلاح في هذه البلاد ، لأن هذه المشروعات لم يسبقها إعداد التربة الصالحة لنموها وازدهارها ، وإيجاد الأيدي الشعبية القوية التي تقوم على تحقيق هذه المشروعات

تلك هي رسالة التعليم الإلزامي في مصر ، مستمدة من روح الدستور الذي وضع للمواطن المصري أرقى مبادئ السياسة والتشريع ، ومستلهمة من حاضر هذا الوطن المفتقر إلى كل إصلاح ، المشرئب إلى مستقبل وثيق الصلة بماضيه المجيد

(القاهرة) محمد فاضل عمر

والحبشيات أو نساء الجلا[1] يقتنين على العموم للتسرى ، وأما السود منهن فيتخذن للخدمة ، وأخيراً الخادمات الحرائر . أما التابعون الذكور فهم عبيد سود أو بيض ، ثم خدم أحرار وهم الأكثرية . وقلما يبيح للمصريون لأنفسهم ما أباح الدين من تعدد الزوجات . ولا يزال عدد من يعاشر أكثر من امرأة بالزواج أو التسرى قليلاً . حتى أن أغلب الذين يكتفون بزوجة واحدة لا يتسرون ليتمتعوا بالهدوء المنزلى ، إذا لم يكن لسبب آخر . ولكن بعضهم يفضل اقتناء جارية حبشية للتسرى على القيام بالنفقات الزوجية المرهقة ، ويجعل لخدمتها جارية سوداء أو خادمة مصرية

ويندر أن يحتفظ الرجل بزوجتين أو أكثر فى المنزل نفسه ، وإلا خصص لكل منهن غرفة متميزة . ويقوم على خدمة رب الدار وضيوفه خادم أو أكثر ، ومنهم خادم يسمى (سقا) ، ولكنه على الأخص يقوم على خدمة السيدات وهن خارج المنزل فقط[2] ، ثم البواب وهو يجلس دائماً على باب المنزل ، والسائس للاعتناء بالاسطبل . وقلما يمتلك المصريون مماليك إذ أن أغلبهم فى حوزة أغنياء الترك . ويندر أيضاً أن يكون لأحد غير عظماء الأتراك أغاوات . ويفتخر أغنياء التجار المصريين عند ما يسير فى ركابهم ، أو يحمل شبكهم ، عبد أسود

يبكر المصرى فى نومه وفى استيقاظه ، وهو ينهض للصلاة قبل الفجر ، وبينما يقوم بفروض الوضوء والصلاة تجهز له امرأته أو جاريته القهوة ، وتحشو له شبكه تبغاً وتقدمهما له حين ينتهى من فروضه الدينية

وكثير من المصريين لا يتناولون شيئاً قبل الظهر غير القهوة وتدخين الشبك ؛ وبعضهم يتناول أكلة خفيفة فى ساعة مبكرة . ويتكون الفطور من الخبز والبيض والزبد والجبن والقشدة أو لبن الزبادى ... الخ أو فطيرة تؤكل وحدها أو بالعسل يصب فوقها أو بالسكر . ومن الأطوار المألوفة فى الفطور الفول المدمس ، وهو يدمس بإنضاجه على مهل ليلة بطولها فى إناء من الفخار يدفن إلى رقبته فى نار الفرن أو الحمام بعد أن تسد فوهته سداً محكماً . ويؤكل الفول بزيت بذر الكتان أو بالزبد ، وقد يعصر عليه قليل من الليمون . ويباع هذا الفول فى أسواق القاهرة وغيرها من المدن . ويتكون طعام الفقراء من الخبز « والدقة » وهى خليط من الملح والفلفل مع الزعتر أو النعناع أو الكمون وأحد المواد الآتية أو أكثرها أو جميعها : وهى الكزبرة والدارصينى والسمسم والحمص . ويصنع الخبز مستديراً مسطحاً ، بطول الشبر تقريباً وفى عرض الأصبع أو أقل

ويتمتع بالتدخين والقهوة كل من يستطيع لنفسه هذا الترف ، فى الصباح المبكر وأحياناً أثناء النهار . وهناك كثيرون يندر أبداً أن تراهم بدون شبك ، إما بين أيديهم وإما مع الخادم ، ويجعل المدخن ، لاستعماله اليومى ، دخانه فى كيس من الصوف أو الحرير أو المخمل ، يضمه فى عب قفطانه ، وكثيراً ما يكون معه كيس آخر به الزناد والصوفان

ويبلغ طول قصبة التدخين (وأسماؤها عديدة منها الشبك[1] والعود الخ) أربعة أقدام أو خمسة ، والبعض أقصر من ذلك والبعض الآخر أطول بكثير . وما يستعمل عادة فى مصر يصنع من خشب « الجرمشق » وأكثر طول القصبة ، من الفم إلى ثلاثة أرباعها ، يغطى بالحرير الذى تحد طرفيه سلوك ذهبية محبوكة بالحرير الملون أو تحدها ماسورتان من الفضة المذهبة ؛ ويتدلى من الغطاء الحريرى فى الحد أسفل شرابة حريرية ، وكان هذا الغطاء مخصصاً بادىء الأمر ليبلل بالماء فيبرد بالتبخر الشبك وبالتالى الدخان . ولكن الشبك لا يغطى إلا إذا كان عتيقاً أو قبيح الشكل . وكثيراً ما يستعمل أيضاً الشبك المصنوع من خشب الكرز خصوصاً فى الشتاء وهو لا يغطى أبداً . ولا يبرد الدخان فى شبك الكرز سيغاً مثل ما يبرد فى الشبك السابق

(١) الجلا Galla شعب سامى يسكن شرق أفريقيا ، وهو مشتت فى أقاليم الحبشة الوسطى وكينيا . ويبدو أن لفظة « جلا » لقب حبشى
ويقول أرنو دابادى Arnaud d'Abbadie أن مسلمى الأحباش يروون أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما أرسل إلى « الجلا » من يدعوهم إلى الاسلام قال رئيسهم : كلا ! (أو جلا ، أى لا) فلما سمع الرسول بذلك قال : إذاً لتكن تسميتهم دالة على امتناعهم عن الايمان
و « الجلا » جنس جميل الشكل إلى درجة عجيبة ، كيت البشرة ، ناعم الشعر موجه ، وسيماء على العموم أوربية . (أنظر دائرة المعارف البريطانية ، مادة Galla) . المترجم

(٢) إلا إذا كان هناك أغا ، والسقا على العموم هو رئيس الخدم

(١) من التركية (شبوق)

ذكره . أما «الحجر» فهو من الآجر[1] ؛ وأما الفم أو «التركية» فيتكون من قطعتين أو أكثر من الكهرمان الفاتح اللون ، يصل ما بينهما زخارف من الذهب المرصع باللينا والحجر اليمان والبشب والعقيق أو غير ذلك من الأحجار الكريمة أو المعادن النفيسة . والفم أعز ما فى الشبك ، وقد يرصع بالماس . ويبلغ ثمن الشبك الأكثر شيوعاً بين الطبقة الوسطى من جنيه إلى ثلاثة جنيهات أسترليني . ويوضع فوق الشبك أنبوبة من الخشب كثيراً ما تغير كلما تلوثت بزيت الدخان . والشبك ذاته يتطلب النظافة كثيراً ، وينظف بألياف الكتان مشدودة فى سلك طويل . ويعيش كثير من فقراء القاهرة على تنظيف الشبك

ويدخن أفراد الطبقة الراقية فى مصر تبغاً له عطر لطيف لذيذ ، يجلب أكثره من جوار اللاذقية فى سوريا . وأحسن الأصناف « الدخان الجبلى » يزرع على تلال هذه المدينة . وهناك صنف قوى ينسب إلى مدينة صور ، وهو الدخان الصورى ، يخلط أحياناً بالصنف السابق ويستعمله أفراد الطبقة الوسطى . وعندما يدخن المصريون أو الشرقيون يسحبون نفساً طويلاً ، فيصل كثير من الدخان إلى الرئة ، ويعبرون عن التدخين عادة بشرب الدخان أو شرب التبغ . والقليل يبصق عند ما يدخن . ولم أر أحداً يفعل ذلك إلا نادراً جداً .

ويستعمل بعض المصريين الشبك الفارسى الذى يمر فيه الدخان خلال الماء ، وهذا النوع يستعمله عادة أفراد الطبقة الراقية ويسمى (نارجيك) لأن الوعاء الذى يحوى الماء جوزة هندية (واسمها بالعربية نارجيلة) وهناك نوع آخر ذو وعاء زجاجى يسمى (شيشة)[2] وكلا النوعين له أنبوبة طويلة لينة . انظر (شكل ٣٣) . وهناك نوع خاص من التبغ الفارسى يسمى (تنباك) يستعمل فى شبك الماء . وهو يغسل أولاً عدة مرات ويجعل بعد ذلك فى حجر الشبك وهو رطب ، ثم يوضع عليه جمرتان أو ثلاث من الفحم . والتنباك عطر لطيف مقبول . ولكن شدة استنشاق الدخان فى هذا النوع من التدخين يضر الرئة الضعيفة[1] . ومدخن الشبك الفارسى يشد الدخان إلى رئتيه مثل ما يستنشق الهواء الخالص . وترجع كثرة أمراض الكبد فى بلاد العرب إلى استعمال النرجيلة ، كما أنه فى مصر يتألم الكثيرون جد الألم بسبب هذا . وهناك نوع يسمى (جوزة) يشبه النرجيلة إلا أن أنبوبته عصا قصيرة بدلاً من أنبوبة النرجيلة القابلة للانثناء ، ويستعمله رجال الطبقة السفلى لتدخين التنباك والحشيش .

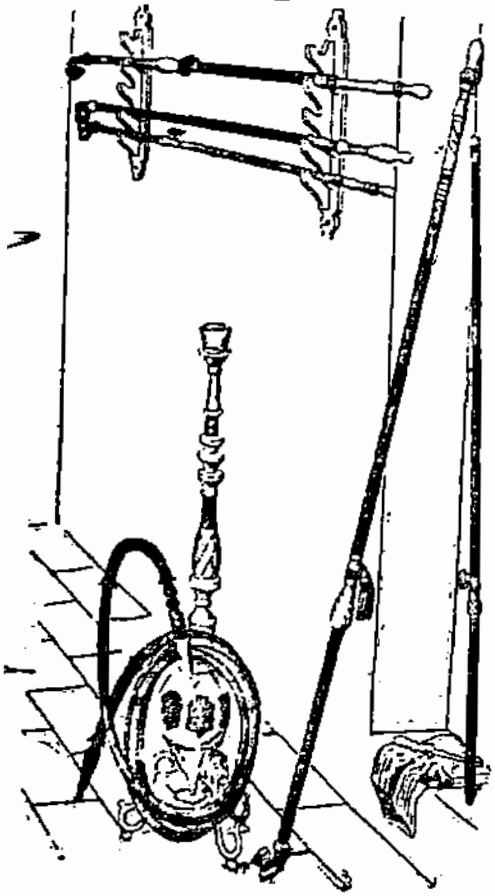

(شكل ٣٣) تصبات التدخين

(يتبع) عبد الحافظ نور

(١) ويوضع تحت الجمر صينية نحاسية صغيرة لصيانة السجاد أو الحصير من النار ، ويستعمل أيضا صينية خشبية ليوضع فيها الرماد

(٢) كلمة فارسية بمعنى (زجاجة)

(١) وهي مع ذلك توصف لمن يصاب بالسعال . ويستعمل أحد أصدقائي (أشهر شعراء القاهرة) ـ وهو مصاب بالربو ـ النرجيلة من الصباح إلى الليل بلا انقطاع تقريبا

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية :
السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ قرشا ،
و٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة فى مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وتقررها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشا فى الخارج عن كل مجلد .